

تروتسكى

أحد مؤسسى النظام الشيوعى فى روسيا

للأستاذ أحمد بك رمزى

والأغلال ، اسكى يهب السعادة والرفاعية والعمل الصالح لأكثر عدد ممكن من سكانه : فإذا به يضطهد رجلاً كان من أشد أنصار هذا النظام القائم الآن فى السوفييت : خدمه كشيورى وكان يخطيب ومؤلف ، ثم كانت نهايته الملاحقة والتفنن فى تعذيبه وهو فى غربته ، ثم قتله بصورة لا ترضى الإنسانية ولا يسلم بها العقل . فأنا إذا كتبت عنه أشيد به كرجل مثقف اتى من أنصار النظام الذى أقامه غير ما يستحق .

كان تروتسكى أول صحابى « استالين » ، وفى مقدمة الذين اضطهدتهم الشيوعية الروسية بمد وفاة زعيمها لينين ، مع أن تروتسكى أدى للثورة أجل الخدم . وليس لنا أن نتساءل ماذا سيكون موقف السوفييت ولا مستقبل النظام الشيوعى لو بقى تروتسكى حياً يرزق ، أو لو قدر له أن يحتل مراكز الزمامة ، كما أنه ليس لى ولا اغبرى أن يصدر حكماً فى صالحه أو ضده ، وإعسا أ كتنى بأن أنظر إليه كرجل اضطهد ونفى ، وتحمل أشد أساليب الضغط على حريته ، وأبعد من محيط العمل السياسى والثورى فى بلد يدعى أنه أقام الثورة الكبرى ضد الرأسمالية ، وحطم القيود

بين « بولتافا » و « كيرسون » نشأ لى دافيد وقتش بروشتاين ، هناك حيث المروج الخضراء والغابات ، وفى السمول التى يطلق عليها اسم « كورجان » والتى تحفظ اسم « نوجاى » التترى ، أو نوجايسكايا بالروسى ؛ هناك رأى الطفل اليهودى الذى حمل اسم « تروتسكى » النور ، إذ ولد فى قرية يهودية تقع بجوار « كيرسون » فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٩ ، فتروتسكى اسم لاعلاقة له به وأغلب عليه ، وبدل اسم والده على تأثره بالجرمانية

أنتقد المون والساعد ولا أعرف الطريق . وأنت أخذتني من بين أهلى يوم أن أردتني لك زوجة ، واليوم - حين فانتني نفسك أهيب بشهامتك أن تدفمك لتراققتني إلى هناك . وهذا - ولأريب أمرهين لا أخالك تضن به على »

وتيقظ عقله ليرى الزلة الكبرى التى هوى فى قرارها حين غم عليه الأمر ، فتهدرت من عينيه عبرات والزوجة الأولى ترى ، فثارت عاطفتها الخالصة فاندفعت إلى حجرها لتوارى خلف الباب ضمت نفسها وبكاء قلبها ... تحدرت العبرات من عيني الفتى لتسمح على تاريخ قصير من الحماقة والجهميل والعمى ، تاريخ باع فيه صفاره الأحياء بالثن البخس ، بفتاة ما فيها سوى بهرج الحضارة وزيف المدينة ، بفتاة خدعتة فسرقته من زوجته وأولاده .

وانتفض الفتى للفكرة ، وجاء تاريخه الطويل يمرض نفسه وهو يسمع صرخات الدم وصيحات الدين وثوارت العقل ، يسمها جيماً تتعالى فى جليلة عنيفة لتوقظه من سبات عميق ران عليه شهوراً ، فأحس بالزلة الكبرى ، وتبدت له أفانين المكروانخداع التى لفته بين طياته ، تميمه عن الصواب وتدفعه إلى الهاوية ، غير أن عزيمته المتداعية ضعفت عن أن تذر الفتاة التى أحب أو أن تهجر الدار التى أهرته . وتماووه أمران ، ثم عقد شيطانه العزم على أن يسرح الزوجة الأولى .

وبانت اللصة التى تستر وراء فنون من الدلال والأناقة والتطرية والمطر ... تسترت وراءها جميعاً لتسرق الرجل من زوجته وأولاده . . . بانت اللصة تنتظر عبثاً عودة الزوج القرب ... وطار الطائر السجين إلى قفصه حين آذاه النور وآلمته الحربة فتخبط بينهما حيناً ثم ارتد إلى عشه الأمين : إلى زوجته وأولاده وهم نور عينيه وفرحة قلبه وبهجة حياته !

ثم دخل الفتى الدار التى سمد بها زماناً ثم هجرها حيناً ... دار الزوجة الأولى ... دخلها فتدافع نحوه الصبية الأبرياء بتملقون به فى شوق ، ويضمرونه بالقبلا ب الحارة فى شغف ، ويلصقون به فى عناق طويل حبيب إلى النفس . وهاجت شجون الفتى الساذج

طامل محمود حبيب

اللغات الأجنبية كانت محدودة ، فبدأت هوان الكتاب وقرأت فسرله التي تحدث فيها عن الثورة الروسية ، ومحاولات عقد الصلح بين روسيا من جهة ودول ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا من جهة أخرى ولا أخفى العاري ، أنني تأثرت من كتابة تروتسكي وقلمه ، فانطابت في مخيلتي الثورة وحوادثها وآسرها ، وتعرفت على أسماء البلاد الروسية وأشخاص السوفييت ، فاستعملت كل ذلك في محادثاتي مع الكثيرين من الضباط الروس الذين جاءوا لمصر ، وكانوا يملأون شوارعها عقب هزيمة القوات الوطنية ، التي حاولت إخماد ثورة البلاشفة .

كان هذا أول اتصال لي بتروتسكي ، الكاتب المؤرخ للثورة الروسية التي قامت سنة ١٩١٧ .

ثم رأيت رأي العين ، وكان ذلك في استانبول حينما نفي إلى تركيا ، فقد كنت أتناول الغداء في مطعم روسي بحى « بيوغلى » حينما جاءت المضيفة وهي سيدة من الروس البيض ، وامرت إلى بأن أنظر إلى مائدة عليها جماعة من الناس ، تحيط بها عدة موائد مشغولة برجال يظهر على سحنهم أنهم من رجال الأمن ، ثم قالت : ها هو تروتسكي بين الجالسين قالت هذا والفرح يشع من عينيها . أنها كانت تنتظر هذا المصير لجميع رجال البلاشفة ، والعودة إلى وطنها حيث ذكريات الماضى ، أنها كتغيرها كانت تحلم بالفردوس المفقود ...

ولما توجهت لتلك الناحية بناظرى ، رأيت عن قرب الرجل الذى كتب الذكريات التي راقنتنى في ذهاني وإياى بقطار حلوان قبل ذلك العهد بأكثر من عشر سنوات ، رأيت جالساً امامى على بعد خطوات منى ، فكان أول ما لفت نظرى تلك اللحية المدببة على وجه أصفر اللون ، اظهر ما فيه النظارتان ثم المينان ، أن لها لوناً خاصاً بين الزرقة والخضرة الفاتحة ، أنه قريب الشبه بالصور النحوتة على بعض المابد المصرية القديمة ، والتي تمثل جماعات الاسيويين في هجرتهم من آسيا إلى أفريقيا ...

وأيتة رقيق الجسم أقرب إلى القصر منه إلى العاقل ، يحوطه شيء من الضموض والانكفاء على نفسه ، فهو قليل الكلام مع من معه ، مقتر على نفسه حتى في تناول الطعام .

ولو أن يهود هذه المنطقة يطلب عليهم أنهم من سلالة « الخرز » فهم أقرب ما يكون إلى الاسيويين أو إلى الشعوب الطورانية منهم إلى الشعوب السامية ، وإن كنت أعتقد أن تقاطيع تروتسكى تدل على انحدره من اصل إسرائيلى صميم .

ويقول تروتسكى في ترجمة حياته إن والده ينحدر من أسرة يهودية ، كانت تقطن قرية بجوار « بولتافا » في اوكرانيا ، — وهذه المدينة هي التي نسب إليها في التاريخ القائد المسمى الشهير بالطعجى باشا ، وصحبه بولتاجى باشا ، الذى اسر بطرس الأكبر ثم فك حصاره . وقد هاجر والده تروتسكى متجهاً إلى الجنوب ومعه بعض المال ، فاشترى مزرعة بجوار مدينة كيرسون ، الواقعة على شواطئ البحر الأسود .

والمتتبع لتاريخ اليهود وفرقهم وسحنهم ، يلمس من أول نظرة الفرق الكبير بين يهود البلاد العربية ، إذا قرنتهم بيهود أوروبا ، ولكن هناك فريقاً ينفرد بميزات خاصة عن يهود أوروبا هو فريق يهود روسيا . أنهم عنصر قائم بذاته ، لأنه يأتي من بلاد لا تزال القرى والمدن فيها تحمل أسماء تربية اسبوية ، فهو من هذه الناحية يختلف تماماً عن غيره من يهود العالم لأنه يمتاز بشدة المراس والشجاعة . والذريب أن ينشأ صاحب القلم الثورى في وسط غير عمالى ، فهو يقرر أن والده كان في سمة من الميش ، وأنه لم يذق قط في حياته شظف الحرمان ، وأن الثورة التي دعا إليها وكافح طول عمره من أجلها ، انتهت بجرمان والده من مزرعته وتشبت أفراد عائلته الذين اضطهدوا في عصر الفيصرية ثم من جيوش دينيكن وفرانجيليل بحكم قرابتهم له طول أيام الحروب الأهلية ، ولما جاءت جيوش البلاشفة أنهموا كرجال راحليين ، فكان نصيبهم سينا في الحالين .

إننى لا أزال أذكر جيداً ، كيف قرأت له لأول مرة في حياتى ، فقد كنا نقيم طول أيام الحرب العالمية الأولى في ضاحية المادى ، وفي سنة ١٩٢٠ بعد انتهاء الحرب كنت بمحطة باب اللوق ، حينما وقع نظرى على كتاب بعنوان « الثورة الروسية » بقلم ليون تروتسكى ، وهو على ما أذكر أول كتبه ، ورغم أننى كنت في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق بمصر ، ومعلوماتنا في

أن أكثر من تسعة أعشار الشعوب الروسية ضده ، وأن عنصر المفاجأة والتضليل والدجل على الجماعات هو الذي يمكنه من الحصول على انتصاراته الأولى : وقد كان إذ كتب الجولة الأولى . . .

فما الذي ساعده على الوصول إلى مقام الزعامة بجوار لينين ثم ما الذي أنزله من مكانته ؟ إن التلم الذي يجمعه تروتسكى ، كان ثوريا إلى النهاية في كل قطرة من مداده ، ... لهذا أقر الناس بأن كتابته هي أقوى أسلحته وأشدّها فتكا وأعظمها أثرا فهو قد بانم أعلى المراكز وقدم للثورة أعظم الخدمات ، وأنشأ الجيش الأحمر واتصّر به في الحرب الداخلية وفي رد المدوان الخاص عن أراضي السوفييت ، ومع ذلك وضع في الصف الثاني بعد وفاة لينين ، وأبعد من المنصب التي يؤهله علمه وعمله وجهاده لها ، قال للمصافحة حينما حتى أخرج للناس كتابه عن ثورة عام ١٩١٧ ،

فإذا أهم ما فيه سيمون صفحة جهلها تقدماً وتحليلاً لحوادث ثورة نوفمبر من تلك السنة ، كانت بمثابة تنوير لعمله الثوري الانقلابي في الثورة الروسية ، حيث أبرز فيها ما قام به من أعمال ... وهناك قيامة الحزب الشيوعي عليه فسلفه رجاله بالسنة حداد أراض « لاستالين » هنا وكتبوا عنه في لجانهم ومجتمعاتهم : « انه يضع المقاييس لنفسه ولأقرانه ، ويصور بقله الجبار صورته للناس ويشيد بعمله كي يخرج من كل ذلك انه الصانع الأول وصاحب القدر المثل في ثورة نوفمبر ولولاه هو لما قامت ثورة البلاشفة » .

رى لو تركوه ماذا كان يحدث في أراضي السوفييت ؟
سؤال لم يترك له الوقت لأنه ما لبثت ان انقلبت الصحافة عليه ، في أنحاء الاتحاد السوفيتي تدعو الى جمع كتبه وحرقها وقالت :

« انه كشف النقطة الضعيفة في درعه ... ان التأثير الكبير قد تملكه الفرور ، وهو داء رأسمالي لا يعرف طريق الولوج الى قلوب الثوار ، ان تروتسكى يحاول ان تثبت به الناس وأن تخضع لمظلمته الجماعات ، ان طابع الفرور والانانية ومحببة الذات من بقايا المصور البائدة ، أما رجال الثورة فيعيشون من أجل الثورة لا من أجل انفسهم » . ثم تساءلوا ...

جاء تروتسكى إلى تركيا بناء على اتفاق سابق مع السوفييت ، بعد أن ضيق هؤلاء الخناق عليه ابتداء من أوائل سنة ١٩٢٨ ، فبعثوا به إلى أواسط آسيا حيث قضى سنة على حدود أراضي الصين ، ولما خفت أصوات أنصاره وتبين للسلطات انه لم يعد ينفذ ولم يعد يضر ، سمحوا له بمخادرة البلاد ، ووافقوا على أن يقيم بتركيا ، فنزلها في فبراير ١٩٢٩ وأختار أن يسكن في منزل بسيط بجزائر الأمراء ، الواقعة أمام الشاطئ الاسيوى .

وكنا كثيراً ما نذهب اقضاء يوم بطوله في تلك الجزر الجيلة وفي أحد الأيام طرأت علينا فكرة زيارة تروتسكى والتحدث إليه ، وجاء الاعتذار عن لسانه بالتلفون رقيقاً ، مما يدل على أن الزعيم قد أعطى كلمة الشرف ، على ألا يستقبل غير أهله وأخصائه في منفاه ، وهكذا رأيت تروتسكى رضاعت منى فرصة التحدث إليه والسماع لأقواله ونظرياته . . .

يحدثنا تروتسكى عن نفسه في كتابه عن تاريخ حياته ، فيقول ان الطييمة قد قصت عليه منذ نشأته : أن يكون ثورياً إنقلابياً ، فهو قد ولد رنشا وعاش وكانج من أجل أفكار ومبادئ وآراء معينة ، ثبت في مخيلته وتمسكت نفسيته وملأت روحه فلم يستطع أن يحيد عنها ، أو يجرد عنها حولاً طول السنوات التي طاشها .

وقال انه نشأ وترعرع في وسط غمرات تماليم الثورة ، فلم يشعر في قرارة نفسه بأنه ملك شعب من الشعوب أو جنس من الأجناس أو دين من الأديان ، فانهى به الأمر أن أصبح أميراً ، أى ملكاً للأمم كافة ، لا يعرف سوى مذهب العالمية ، هذه العالمية التي جعلت منه في النهاية بعد سنوات التي بواشفتها ، يقود أكبر ثورة عمالية على الأرض في وسط بلاد تمد أكثر البلاد تمسكا بالرجمية .

وقال « أنه يؤمن بالثورة على حد أنها تغيير بطيء أو عنيف يصيب السكان السياسى والاجتماعى والدستورى ، نتيجة لتبدل الأسس الاقتصادية والإنتاجية لأمة من الأمم » وهو التفسير الذى وضعه كوتسكى قبله في كتابه الثورة الإجتماعية .

ولكن زعيم الانقلاب الروسى ، كان يعلم في داخلية نفسه

وعزم فلا يمكن لقوة في العالم أن تقهرنا . ألا يشبه هذا ما يقوله دماة السوفيت اليوم ؟ إنهم يحملون بالثورة الكبرى كما كان يحمل تروتسكي ، ويرددون قوله : إن السور المحكم الذي يحاول الأعداء من قوى الاستعمار والرأسمالية أن يحيطونا به ، سنحطمه تحطياً ... أنهم ستأخذهم رجة واحدة وسوف تلبى الجوع دعوتنا ، وتأتي صفافنا اليينا ، لإنشاء العالم الجديد ؟ بارادة لا تعرف التراجع ، لأن القوة الهائلة المركزة تحت عزيمة ثابتة لن تقف أمامها عقبة ، ولن يحول دون انتصارها حائل . وهكذا استمر الزعيم يتنبأ كنتهوات بنى اسرائيل فقال : «ألا فاعلدوا . أن التاريخ يحارب في صفنا ، والزمن حليف لنا . إن الثورة الاشتراكية ستنشأ حتماً في كل من أوروبا وأمريكا ، مهما بعد الزمن أو قرب » وصرا الزمن فلم يحدث شيء من ذلك . لقد أسكرت نشوة الظفر تروتسكي فاذا بنى الشيوعية يفرق في غمرات الأحلام والآمال ، وبق راديو موسكو يردد نبوءات تروتسكي ثلاثة وثلاثين عاماً ، ولم تقم الثورة السالبيسة الكبرى ، ولم ينشب الجوع اظفارهم في رقاب الطبقات الحاكمة : لقد كان تروتسكي يقيس العالم بما رأته عيناه في روسيا ، فاذا بها تنفرد وحدها في طريق والعالم في طريق آخر : -

لقد مات تروتسكي ، وإذا بأحلامه أبعد عن التحقيق اليوم من سنة ١٩١٧ ، وإذا نحن في بداية النهاية . إن الثورة التي أحسن أدارتها من مكتبة في مدرسة بالمصحة الروسية سنة ١٩١٧ قد تخذت وهي تتطور وتسير نحو الانتكاش ، وقد يأتي يوم تميز فيه إلى المنفى كما سار هو من قبل .

كان كارل ماركس ولينين من جيايرة الفسكر ، وكان تروتسكي من جيايرة الثورة ، وقد تركوا من الانقاص والخرايب في روسيا وغيرها مايشغل جيلا . إنها خسائر المادية . أما ما تركوه من الآلام وضياح الآمال فلاسبيل لإصلاحه . إنها كانت تجربة قاسية دفنت ثمنها الانسانية غالياً « وإنا لاندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم رشداً » .

أحمد رمزي

« من هذا القزم الذي يحاول ان يضع نفسه على مقعد الزعماء الخالدين ؟ فيحط من قدر اخوانه وزملائه في الجهاد ، ويحاول ان يجمل من مقاييس الثورة المنبثقة من تطور التاريخ وكفاح السوفيت وتأييد الجماعات ، غشاه لا رضاء نفس متجيرة مترددة ضميقة ...

« انها نفس تقبل على عاتقها ان تحط من جلال عمل كبير ، وان تنسب الى جهودها إخراج المستحيل والوصول إلى عظام الامور وأسمها وانه « لولاها لما قامت للثورة قائمة » .

« ان هذه النفس مريضة وفيها بقايا الإنسان الرجعي »

ويذرتني القارئ اذا قلت ان تروتسكي لقي جزاء سئام بعد هذه الحلة التي جعلته عدواً للنظام القائم الذي أخذ يتبع أنصاره واتباعه ويعدم واحداً بعد الآخر عن مناصب الدولة .

ثم جاءت الخاتمة . نعم ان الرجل الذي افنى عمره في سبيل الثورة وأتاه نبأ احتضار والده ، وهو يرأس لجنة شؤون الحرب بقصر الكرملين ، لم يشأ أن يوقف عمل اللجنة ليودع والده الوداع الأخير ، بل استمر في رئاستها يناقش أعضائها .

وجاء وقت دفن أبيه فلم يشأ أن يقوم من مقعده . أنه يعتبر نفسه قد تحرر من امراض الرجعية ، ويريد أن يضرب بنفسه مثلاً لما يجب أن يكون عليه رجل الثورة الذي لا تشغله الفرائز ولا تجد العواطف أو الواجبات مدخلا لقلبه ، ولكن ماذا كانت حاجته ؟ كانت المنفى والتشريد ثم القتل بعيداً عن الثورة ، وعن الفردوس الذي تصور أن يقيمه يسدبه ، وانتهت حياته في المكسيك ، ولم يحظ برثاء أو تقدير من هذا النظام الذي أقامه وتمعهه وكافح من أجله ...

لقد قرأت خبر نكبته وقملته ووضعت أمامي ما كتبه هذا الزعيم في إدائل الحكم الشيوعي : -

لقد كان من نتائج هذه الحرب (١٤ - ١٩١٨) أن تزهرت أركان الرأسمالية فأخنت نهار ، وهانحن نبرز إلى الوجود بجمرة